

الحج بين الإجلال والإلحاد
الكاتب : عبد العزيز محمد آل عبد اللطيف
التاريخ : ٥ سبتمبر ٢٠١٥ م
المشاهدات : 5964



«سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمنًا، يترددون إليه ويرجعون عنه، ولا يرون أنهم قضاوا منه وطراً. لما أضاف تعالى ذلك البيت إلى نفسه، ونسبه إليه بقول خليله: **{وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ}** [الحج: ٢٦]؛ تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم، فكلما ذكر لهم البيت الحرام حنّوا» [١].

الحج هو شعار الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، والحنيف هو الحاج إلى بيت الله الحرام، والحنيفية هي الإقبال على الله بالكلية، والإعراض عما سواه، فلا تتحقق الحنيفية إلا بالحج [٢]، ولذا فإن «المقصود من الحج: عبادة الله وحده في البقاع التي أمر بعبادته فيها» [٣].

فالحج قائم على تحقيق عبادة الله وحده لا شريك له، كما في قوله تعالى: **{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}** [الحج: ٢٦].

وقد استهل نبينا عليه الصلاة والسلام حجه بالتوحيد، كما في حديث جابر: **{وأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد فقال: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك}** [٤]، وطالما جاء التأكيد والتذكير بإخلاص العبادة لله تعالى في الحج، كقوله تعالى **{وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}** [البقرة: ١٩٦]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **{من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه}** [5].

وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: **{اللهم هذه حجة لا رياء فيها ولا سمعة}** [6].

ثم إن الحج تسليم للنصوص الشرعية، وانقياد وإذعان للوحيين، وكان عمر الفاروق رضي الله عنه يقول عن الحجر الأسود: **{إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك}** [7].

وقد علق الحافظ ابن حجر على مقالة الفاروق فقال:

«وفي قول عمر هذا التسليم في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يفعله، ولو لم يعلم الحكمة فيه» [٨].

ومن معالم الإيمان والتوحيد في فريضة الحج: تعظيم شعائر الله عز وجل، فمعاني الإجلال لله تعالى والتوقير لمناسكه ظاهرة بينة، حيث قال عز وجل: **{ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}** [الحج: ٣٢].

وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«إن هذه الأمة ما تزال بخير ما عظموا هذه الحرمه (يعني الكعبة) حق تعظيمها، فإذا ضيعوا ذلك هلكوا»** [9].

ومن أظهر منافع الحج: تحقيق تمايز أهل الإيمان بمخالفة أهل الكتاب والأوثان، ومفارقة رسوم الجاهلية وأحوالها ظاهراً وباطناً، ومجانبتها وإهانتها.

وأكد ابن القيم هذه المفارقة بقوله: «استقرت الشريعة على قصد مخالفة المشركين لاسيما في المناسك» [١٠]. وأبطل نبينا خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم عوائد الجاهلية كما في خطبة حجة الوداع فقال: **«كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع»** [11].

قال ابن تيمية مقررًا هذا المعلم: **«إن كل ما عظم بالباطل من مكان، أو زمان، أو شجر، أو بنية؛ يجب قصد إهانتها، كما تهان الأوثان المعبودة»** [١٢].

والحاصل أن في الحج من الأسرار الجليلة، والحكم العظيمة، والمنافع الكثيرة ما لا يحصى؛ ففيه تحقيق الإقبال على الله وحده، وترسيخ أن يكون الله وحده - لا إله إلا هو - هو المعبود والمقصود، وتعظيم الله وإجلاله، وتعظيم شعائر الله وحرماته، ومجانبة سبيل أهل الجحيم، ولزوم السنة والدليل، وتحقيق الاتباع والتأسي بسيد الأنام عليه الصلاة والسلام.

من أجل ذلك شَرِقَ الملاحدة والزنادقة بهذه الشعيرة، فأجلبوا عليها بخيلهم ورجلهم، وكادوا لهذا الركن العظيم باللسان والسنان، وبالمحاداة والارتباب، وبالاعتراضات والشبهات، وبالشكوك والارتباب، وبالجد والهزال.. لكن كيد الكافرين في تباب، فالعاقبة للتقوى وللمتقين.

ومن ذلك ما صنعه أبرهة عندما بنى الكنيسة «الخشيسة» - كما وصفها ابن كثير - والمسماة بـ«القُلَيْس» من أجل أن يصرف الناس عن حج بيت الله الحرام، فجاء رجل من أهل مكة، فأحدث فيها، فغضب أبرهة، وسار بجيشه ليهدم الكعبة، فأهلكه الله عاجلاً غير آجل. وأما «القُلَيْس» فأمست أثراً بعد عين، وانمحت آثارها في عهد الخليفة العباسي «السفاح» [١٣].

ومن ذلك الإفك والخبال: أن الملاحدة من الفلاسفة والمنجمين لما هالهم شأن البيت العتيق وحفظه مع تعاقب القرون، ولحققتهم الحيرة بسرّ انجذاب القلوب إلى هذه الكعبة، وكونها مثابة للناس ومهوى للأفئدة.. لما هالهم ذلك زعموا أن تحت الكعبة بيتاً فيه صنم يبخر ويصرف وجهه إلى الجهات الأربع ليُقْبِلَ الناس إلى الحج [١٤].

وهذا التعليل محض افتراء، وكذبة صلعاء، وأضحوكة الصبيان.

والتهكم بشعائر الحج من طرائق الزنادقة المنافقين، كما وقع من علي بن يقطين الذي سخر بالطائفين بالبيت الحرام، وشبَّههم بالبقر، فأمر الخليفة العباسي الهادي بقتله، ثم صُلب لأجل زندقته سنة ١٦٩هـ [١٥].

وإيراد الاعتراضات والشكوك على مناسك الحج مسلك قديم لأولئك الملاحدة، فقد أشار ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) إلى مقالة للملاحدة: إن كانت الخطايا سوِّدت الحجر الأسود، فقد ينبغي أن يبيّض لما أسلم الناس.

ثم أجاب عنها ابن قتيبة فكان مما قاله: «فَمَنْ الذي أوجب أن يبيّض بإسلام الناس؟ ولو شاء الله تعالى لفعل ذلك من غير أن يجب...» [١٦].

ومن المكر الكبّار الذي يُراد به صدّ الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام ما جاء في كتب الرافضة المعتبرة - عندهم - من تفضيل كربلاء على الكعبة، وأن زيارة كربلاء وقبر الحسين يوم عرفة أفضل من سائر الأيام [١٧]!

وكذا ما وقع من القبورية وغلاة الصوفية، فإن من القبورية من يعتقد أن زيارة المشاهد التي على القبور أفضل من حج البيت الحرام، ويسمي زيارتها الحج الأكبر [١٨]! ومنهم من سوغ الحج إلى معابد المشركين في الهند! أو يجعلون قبر الولي بمنزلة عرفات، وربما فضّلوا زيارة واحدة لقبر الشيخ على عدة حجات إلى بيت الله الحرام [١٩].

وأما الصوفية الغلاة فإن الحلاج زعم أن من فاته الحج فإنه يبني في داره بيتاً يطوف به كما يطوف ببيت الله الحرام، ويتصدق على ثلاثين يتيمًا، وقد أجزأه عن الحج، ولذا قُتل الحلاج بسيف الشرع سنة بضع وثلاثمئة من الهجرة [٢٠].

وفي هذه السنوات الأخيرة أحدث زنادقة المتصوفة الحج إلى ضريح أحمدو بامبا في السنغال، ويسمّون تلك البلدة «مكة الإفريقية»! كما أحدثوا الحج إلى كازاخستان، وسموه: الحج الأصغر، وأطلقوا عليه «مكة الثانية»، وعللوا الحج إليها تركستان لأجل مشقة الحج إلى مكة وكثرة النفقة [٢١].

وقريب من ذلك ما فعله الباطنية الملاحدة حيث تأوّلوا الحج إلى بيت الله الحرام بالسفر إلى شيوخهم [٢٢]، وكذا من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه، لأن الكعبة تطوف به [٢٣]، ونحو ذلك من تأويلات باطنية، وأحوال شيطانية.

وقد ساق بعض المشككين - من البحرين - اعتراضات على شعيرة الحج، وبعثوها إلى العلامة محمد رشيد رضا سنة ١٣٣١هـ، فأجاب عنها بأجوبة محررة متينة [٢٤].

ومما يحسن ذكره هاهنا أن هذه الاعتراضات وسائر الأسئلة الواردة في فتاوى رشيد رضا والجواب عنها، تكشف طرفًا من التحديات الفكرية وتاريخها، والإشكالات والنوازل العقديّة التي استفحلت آنذاك، كالإلحاد الشيعوي، والتنصير، والاتجاه الإصلاحية العقلاني، والتصوف الغالي... إلخ.

والذي يعيننا هاهنا أن نكتفي ببعض ما سطره رشيد رضا في رد زعمهم أن تقبيل الحجر الأسود من بقايا الوثنية، حيث قال رحمه الله:

«ما ذكره السائل في تقبيل الحجر الأسود قد سرى إليه من شبهات النصارى والملاحدة الذين يشككون المسلمين في دينهم بأمثال هذا الكلام المبني على جهل قائله من جهة، وسوء نيته من جهة أخرى، ومن عرف معنى العبادة يقطع بأن المسلمين لا يعبدون الحجر الأسود، ولا الكعبة ولكن يعبدون الله وحده باتباع ما شرعه فيهما» [٢٥].

ولما قدم الشيخ سليمان بن سحمان إلى البحرين سنة ٣٣٣هـ، واطلع على أجوبة رشيد رضا على هؤلاء الحيارى أثنى عليها خيراً، وتعقب هذه الأجوبة بالزيادة والبيان، وجزم أن هؤلاء زنادقة، وألف في ذلك رسالة مفردة مطبوعة بعنوان: «إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل على ما مؤه به أهل الكذب والمين من زنادقة أهل البحرين».

وقرر -رحمه الله- أن منشأ ضلال هؤلاء الزنادقة هو الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله، والإكباب على كتب الملاحدة وما تلقوه من شبه النصارى.

وأما تشكيكهم بالسؤال عن الحكمة من تقبيل الحجر الأسود، أو رمي الجمار ونحوه.. فهذا من فرط جهلهم فلا يجب أن تكون الحكمة بأسرها معلومة لجميع البشر [٢٦].

والمقصود أن هذه الزندقة والإلحاد - في شعيرة الحج - تعود إلى النقص وإفساد أصلي الدين وركنيه: ألا نعبد إلا الله وحده، وألا نعبد إلا بما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم، فشياطين الإنس والجن يزينون عبادة الأولياء والأئمة كما هو عند الصوفية الغلاة والرافضة، ويشترعون ما لم يأذن به الله من البدع والمحدثات.

ومع ذلك الكيد المتطاوول والمكر المتلاحق إلا أن سعيهم في سفال، وكيدهم في ضلال؛ فما زال البيت الحرام مهوى للأفتدة ومثابة للناس وأمنًا، بل تضاعف عمّاره وحجّاه من كل حدب وصوب، ومن كل فج عميق.

قال ابن تيمية رحمه الله: «بل وجود مكة مما يدل على القادر المختار، وأنه سبحانه يخلق بمشيئته وقدرته وعلمه، كما قال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المائدة: ٧٩]. قال ابن عباس: «لو ترك الناس الحج سنة واحدة لأطبق الله السماء على الأرض». ولهذا كان حج البيت كل عام فرضاً على الكفاية، كما ذكر ذلك الفقهاء من أصحاب الشافعي» [٢٧].

[١] «لطائف المعارف» لابن رجب ص ٣٣٢، وينظر: «زاد المعاد» لابن القيم ١/٥٧ [٢] ينظر: «جامع المسائل» لابن تيمية ١/٨٢، و«اقتضاء الصراط المستقيم» ٢/٨٣.

[٣] «اقتضاء الصراط المستقيم» ٢/٨٣.

[٤] رواه مسلم (١٢١٨).

[٥] رواه البخاري (١٥٢١) ومسلم.

[٦] قال الألباني: «رواه الضياء بسند صحيح»؛ «مناسك الحج والعمرة» ص ١٥، وينظر: «فتح الباري» لابن حجر ٣/٣٨١.

[٧] رواه البخاري (١٥٩٧).

[٨] «فتح الباري» ٣/٤٦٣.

[٩] قال ابن حجر: أخرجه أحمد وابن ماجه وسنده حسن.

[١٠] «تهذيب سنن أبي داود» ٣/٣٠٩.

[١١] رواه مسلم (١٤٧).

[١٢] «اقتضاء الصراط المستقيم» ٤٧٧/١.

[١٣] ينظر: «البداية» لابن كثير ٢/١٧٠، و«قاعدة عظيمة» لابن تيمية ص ١٠١.

[١٤] ينظر: «الصفدية» لابن تيمية ٧٢٢، و«الرد على المنطقيين» ص ٥٠٢.

[١٥] ينظر: «تاريخ الطبري» ٤/٥٩٥.

[١٦] «تأويل مختلف الحديث» ص ٣٤٩، وساق ابن حجر أجوبة أخرى عن هذا الاعتراض كما في «الفتح» ٣/٤٦٣.

[١٧] ينظر: «أصول الشيعة الإثني عشرية» لناصر القفاري ٢/٤٥٣-٤٧٧.

[١٨] ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» ٧٣٩/٢.

[١٩] ينظر: «الرد على البكري» لابن تيمية، ت: السهلي ص ٣٠٦.

[٢٠] ينظر: «جامع الرسائل» لابن تيمية ١/١٨٩، و«مجموع الفتاوى» لابن تيمية ٣/١٠٨.

[٢١] ينظر: «مجلة الصوفية الإلكترونية»، العدد السابع.

[٢٢] ينظر: «بيان تلبيس إبليس الجهمية» لابن تيمية ٨/٣٦٧، و«التدمرية» ص ١٦٠.

[٢٣] ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية ١/٤٠٣.

[٢٤] ينظر: «فتاوى محمد رشيد رضا» ٤/١٢١٤-١٢٣٣.

[٢٥] ينظر: «فتاوى محمد رشيد رضا» ٤/١٢١٧.

[٢٦] ينظر: «إقامة الحجة والدليل» لابن سحمان ص ٧٠٣.

[٢٧] «الرد على المنطقيين» ص ٥٠٥، بتصرف يسير.

مجلة البيان العدد ٣٤٠

المصادر: